ومن رأي مؤلف الكتاب ان بني اسرائيل هؤلاء جاؤوا من كردستان التابعة لبلاد الفرس ولكن ان كان في كردستان جماعة صغيرة من الاسباط العشرة ففي افغانستان امة كبيرة تقول انها من الاسرائيليين . ولم ينف المؤلف احتمال ذلك بل اشار الى كتاب الفهُ الشيخ صادق علي يقول فيهِ ان ثلاثاً من اكبر قبائل الافغان اصلها يهودي . والى رسالة كتبها المترسلون في المجلة الانكليزية المسماة اخبار اليهود في ٢٩ اغسطس سنة ١٩٠٣ . قال فيها ان صديقاً من اصدقائهِ دعي الى بيت رجل من مسلمي الافغان فوجد صحفة فيها رقاق فطير وزائدة الكبد وبخور ونحو ذلك مما يذكر في اسفار موسى واراهُ اصحاب البيت كتب صلاة بالعبرانية فطلب منهم ان يعطوهُ اياهُ فابوا . وقد ذكر جنستن في قاموسهِ الجغرافي انهُ لما وصل نادر شاه الى بشاور اتاهُ رؤساء بعض القبائل بتوراة مكتوبة باللسان العبري واشياء اخرى مما كانوا يستعملونهُ في ديانتهم الاولى فعرفها اليهود الذين كانوا معهُ انها مما يستعملونهُ هم . انتهى

هذا ومقالة مجلة الاديان مسهبة في هذا الموضوع . والظاهر ان اكثر الباحثين على ان الافغان يدَّعون انهم من بني اسرائيل وانهم يشبهون الاسرائيليين في شكلهم وبعض عاداتهم ولكن لغتهم لا تشبه اللغات السامية بل هي من اللغات الآرية فان كانوا من بني اسرائيل فقد ابدلوا لغتهم الاصلية كما فعل الذين سكنوا اوربا من الاسرائيليين

العرب وحكوماتهم

كانت العرب امة بدوية غير مستنيرة بنور المدنية وبلادها قاحلة لا مطمع فيها للغازين . وما ترك قيز وغيرهُ من الفاتحين امرهم الاَّ حيث يعلم ما يقاسيهِ الفاتح ديارهم من رمال محرقة وصحاري سجفة ناصباً جهدهُ لاستبسال ابنائها ولا ثمرة فيهم تعود اليهِ بما ينسى تلك المشقة . بذلك بقيت جزيرة العرب في بحبوحة من فتك الجبابرة وامن من هجوم الفاتحين

فتأسست حرية الفكر في العرب وتأصلت في اخلاقهم حتى سرت في عروقهم وطبعت عليها اخلاقهم ونمت فيهم نموّاً صالحاً وكانوا في محاورتهم ومجادلتهم يظهر ذلك فيهم . لما افتخر النعمان بن المنذر بقومهِ العرب عند كسرى وقد كان كسرى نال منهم ووصفهم بما اثار حمية النعمان العربية ونعرتهُ القومية رجع الى مقره في الحورنق وجمع اليهِ جماعة من اشراف القبائل التي تأوي اليهِ وقص عليهم القصة وطلب منهم ان يوفدوا وفداً ليذهبوا الى

عاصمة الفرس ليرى منهم كسرى وعظماء دولته ما لم يكونوا يعلمون . لكن النعمان خشي تطرفهم في القول لعلمه بما تطربت عليه نفوس قومه من اطلاق الكلام بلا وجل وما طبعت عليه نفوس مجاوريه الفرس من وقوفهم في التبجيل والتعظيم عند حد لا يتجاوزونه . فاوعز الى الوفد ان يجتنبوا خشن الكلام مهما امكن لكن الطبع غلاب فانهم لما مثلوا بين يدي كسرى كانت لهم صولة لا تكون الا ممن نشأ منشأهم وتخلق باخلاقهم . على ان النعمان اعتذر الى كسرى بكتابه الذي يقول فيه « ليغضر عن جفاء ان ظهر فيهم » وما هو ذاك الجفاء الا من آثار ما نشأوا عليه من الاطلاق

نزلت بعض القبائل البدوية وادي مكة حيث الكعبة البيت الحرام مهوى افئدة الحجيج فتألبتها قبائل أخر حلت بعلها ثم تشعبت على طول الامد وتقادم العهد اتخاذها وفروعها فكانت عشائر لكل عشيرة رئيس تأتمر بامره ولكن هذه القبائل مع اجتماعها في صعيد واحد لم تتلبس حضارة الامم العريقة في المدنية في عصرها وتأخذ منها شكل حكومتها لانها عربية بحتة لا يجاورها غير القبائل البادية الا قليل من كانوا يصعدون الى الشام ويحدرون الى اليمن في رحلتي الشتاء والصيف فلم تتغير عصبية العامة لرؤسائهم ولم ينتزع حب الرئاسة من نفوس الرؤساء فبقيت الحكومة القبلية راسخة الا ان طبيعة النوع واشتباك المصالح كانت تدعو الى اقامة حكومة عامة . والعصبية الراسخة في كل قبيل لرئيسه تمنع من اتفاق الرأي على القاء مقاليد الحكومة لشخص واحد فالفوا حكومة تشبه الجمهورية وكانت لهم دار الندوة في مكة مجمعاً يضم في باحته مشيخة قريش عشرة رؤساء من عشرة قبائل تسكن مكة وما اليها بنو هاشم ويتلوهم بنو المطلب وبنو امية وبنو نوفل وبنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو اسد وبنو عدي وبنو تيم ولم يتو زهرة وبنو جمح وبنو سهم اقتسموا الاعمال العامة عندهم فجعلوا لكل حي منها عملاً فكان لبني هاشم سقاية الحاج ومراقبة الآداب العامة في الحجيج المسماة بالعمارة ولبني امية امر الراية العظمى المعروفة بالعقاب يتولون امرها اذا لم تتفق الندوة على من تسلمها ولبني عبد الدار الحجابة والسدانة وهي خدمة البيت الحرام ولبني مخزوم مضرب القبة الحربية التي كانوا ينصبونها في دار الحرب لزادهم وذخيرتهم ولم تصريف الاعنة وهي رئاسة الفرسان وتدبيرها في الحرب ولبني اسد الرأي الاخير في المشورة فلا يبرم امر ما لم يصادق عليه مشيوخهم من بني اسد ولبني عدي السفارة في الحرب قبل نشوبها وبعد ان تضع الحرب اوزارها . ولبني تيم حمل الديات والمغارم يتولى جمعها ذو المغرم مع صاحبها من بني تيم . ولبني جمح ضرب القداح وهي ما يستقسمون به ويستخرجون الخير منه في كل امر يريدونه ولبني سهم مراقبة الاموال المرصدة لآلهتهم

وانما جعلوا لكل وليس من كل قبيلة عملاً حتى يكون لكل قوم مفخر يفتخرون به ولا يمتاز بعضهم عن بعض وقد الفيت من بينهم الرئاسة العامة حتى لا يتنافسوا عليها فتؤدي الحال بهم الى التنازع فساروا على نهج من الفضيلة لاجب وكأني بهم وهم قوم لم يألفوا الظلم فعافوه ولم يذوقوا الضيم فانفوه لما هتف الزبيدي من اعلى ابي قبيس مستظلماً من العاص بن وائل السهمي شريف قومه لما اغتصبت بضاعته

يا للرجال لمظلوم بضاعته يبطن مكة نائي الحي والنفر

بعد ان شكى امره الى الاحلاف فصاموا العاص ولم يجيبوا طلبة الزبيدي ويكشفوا ظلامته كأني بهم قد اجتمعوا في دار عبدالله بن جدعان التيمي لحلف الفضول وتعاقدوا على ان لا يظلم في مكة احد الا كانوا عوناً على الظالم للمظلوم حتى يقتصوا له ظلامته. اجتمع من القبائل العشرة بنو هاشم والمطلب وبنو تيم وزهره وبنو اسد بن عبدالعزى وعقدوا ذلك الحلف الشريف ودفعوا بذلك الظلم والحيف والسلطة الجائرة

وكانت اليمن في مهد حضارتها مركز تمدن العرب والحكومات العربية الاولى ولكن كانت كالحكومات المجاورة والمعاصرة لها كانت ذات سلطة وبطش شديد في حكومة ملكية مطلقة عصرية ذات صولة قاهرة وكان اذراه اليمن كغيرهم من الملوك فيهم المستبد الجائر المستقل برأيه كذي الاذعار وفيهم من استمسك باهداب الشورى والعدل كما اخبرنا به القرآن عن بلقيس لما القي اليها كتاب سليمان بن داود عليه السلام اذ قالت لاولي الامر والرأي من قومها يا ايها الملأ افتوني في امري ما كنت قاطعة امراً حتى تشهدون. جعلت لهم الشورى في كل امورها. كان لليمن مثل ذي الاذعار وكان ذا مثل بلقيس وكان لها من اخذ في الامر طريقاً وسطاً ولم يكن لها قوانين موضوعة تسري في نهجها فكانت الشورى ان حصلت تكون اختيارية ان شاء الحاكم وضعها وان شاء رفعها كما هو الحال في الحكومات الاسلامية بعد ان انقلبت الخلافة الى الملك العضوض

ان ملوك العرب كانوا يقتبسون شيئاً من استبداد من جاورهم وان اعمال آل محرق من الغسانيين في العراق وذكرى يوم البؤس ويوم النعيم تدلنا على ماهية اخلاقهم وكيفيتها لكن هذا انما يحصل لانه ليس للقوم قوانين راسخة يسيرون في طريقها وعلى منهاجها ومثل هذه الاعمال لم تكن مانعة لاحد منهم ان يجهر بما يختلج في صدره غير خائف من صولة ولا خاش من قوة

بلاد العرب لم ترتقِ عن عهدها القديم حيث الرمال المحرقة والصحاري القاحلة واهلها بادون في اقطارها يتطلبون الماء وانكلاً لا تستقر لهم دار ولا يطمئن بهم منزل فكيف تنشر بينهم اعلام المدنية وكيف تكون بلاداً قابلة للاستعمار وهم ليسوا باولي حول وقوة يطلبون بها من جاورهم على البلاد الخصيبة وكيف ترتقي حكومتهم وارتقاء الحكومة بارتقاء الشعب

من طبيعة المرء ان يتطلب العيش الهنيء ويجتنب الشقاء والعناء ومن الفطرة ان يرتقي المرء في افكاره وكما طال عليه الامد ولكن العرب البادية اذا طلبت الهناء في العيش لم يظفروا بطلبها هذا ضعفت القوة الاجتماعية بينها واذا رأوا البلاد المجاورة لهم ذات الخيرات واهلها راضخون لحكومات معالقة تحكم في اعشارهم وابشارهم كيفما شاءت فضلوا العيش الخسيس مع العزة والاباء على العيش الهنيء في ظل الشقاء بذلك لبثوا في ديارهم اباءً للضيم ولم يغيروا عمرانهم البدوي فان ابدال عمرانهم باحسن منهُ انما يكون حيث تكون السعة في الرزق والبسط في العيش ولا شيء من ذلك في ديارهم فلم يبرحوا ضاربين على المياه القليلة لكل حيّ ماءة فاذا غزر الماء ازدرعوا ما حولهُ حتى اذا آن حصادهُ اجنوهُ وغادروهُ الى محل آخر تابعين حالة الفصل والمكان

بلاد العرب ليست بارض تنمو فيها الزراعة بحيث تدعو اهلها الى الاقامة والتحضر ليتركوا المعيشة البدوية وليس لهم من فضلة الرزق ما يرتقي بهم عن الكفاف ليشعروا بهِ في رفاهيتهم بل جل مالهم محصور في مواشيهم فحيثما حلوا او ارتحلوا احتلبوا متاعهم ومساكنهم واستبدلوا بالدار داراً وبالجيران جيرانًا فكيف لمن كانت هذه حالهم ان تتألف منهم دولة واحدة او تجتمع لهم صولة قاهرة وكيف يخضعون لحاكم عام يجمع اليهِ قبائلهم المتفرقة وعشائرهم المقسمة

نعم كان لشارف الشام وسواد العراق دولتان قضت بوجودهما المناظرة الشديدة بين الفرس والرومان فعضد الفرس دولة اللخميين في العراق وقوّى الرومان دولة بني غسان في البلقاء من ارض الشام وما ذاك الاّ ليصطنعوا من وراءهم من امم البادية ليكونوا لهم الباً على اعدائهم وروداً دون ذؤبان العرب كي لا يجوسوا خلال الديار المجاورة لهم من اصقاع هاتين الدولتين. وقد رأى سكان العراق والشام من العرب خصب الاراضي وخيراتها فالفوها وجنوا من ثمراتها رزقاً لهم وحفظوا مع ذلك اباء نفوسهم وعزتها ولم يعطوا الدولة المجاورة غير شرف الانتماء والسيادة الاسمية ولم يدفعوا ضريبة ولا خنعوا للذلة

وقد علمنا ان النعمان بن المنذر حرك ثائرة الاياد في نفوس وفدهم الى كسرى بقوله « وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت ان يكون لها غور او يكون اظهرها لامر اراد ان يتخذ به العرب خولاً له كبعض طوائفه في تأديتهم الخراج اليه كما يفعل بالامم حوله » مثل هذه الاخلاق كان العرب باقين على عمرانهم البدوي متمسكين بجبال الحرية في القول والعمل غير خاضعين لحاكم حتى ظهر النبي العربي في مكة المكرمة ام القرى يدعوهم الى الاجتماع بعد الافتراق يدعوهم الى الدين القويم وهم قوم نشأوا على الغلظة والجفاء خاصتهم وعامتهم بما الفوه من الحرية والاطلاق مع الجهل فقاسى ما قاسى في تأييد دعوته بينهم حتى اذا هاجر الى يثرب وقام بنصرته الاوس والخزرج وايده الله يروج منه عمت دعوته البلاد العربية وخضعت لتعاليمه القبائل البدوية لما علموا انها خير لدنياهم اذ اصبحوا بنعمة الله اخواناً فحل الوئام بينهم محل الشقاق وانها الفخيرة لهم في اخراهم اذ احلت عبادة الملك الديان محل عبادة الاحجار والاوثان

اجمعت كلمة العرب على التوحيد وساروا سيفي منهج التعليم الاسلامي فتقوّمت حالتهم الاجتماعية تماماً فلم يكن عندهم ابهة الملوك ولا عجبية الرياسة وكانت احكامهم قائمة بالمساواة فليس لغني ميزة على فقير ولا لكبير فضل على مملوك حقير وقد تولى زيد بن حارثة مولى رسول الله جيشاً فيه اكابر المهاجرين والانصار كابن عمه واعز الناس لديه جعفر بن ابي طالب وعبدالله بن رواحة وخالد بن الوليد واشالهم فكانوا جميعاً طوع امره ولم يكن في الشرع فرق في الحقوق والواجبات بين بلال الحبشي وسعد بن عبادة كبير الانصار وانما كانوا يتفاضلون بالاعمال الصالحات فالمرء رهن عمله وقيمة كل امرئ ما يحسن

الشرع الاسلامي لم ينظر في الاحساب والانساب والآباء والابناء بل نظر الى الاعمال التي هي عنده ميزان التفاضل فيقتص من جبلة بن الايهم ملك غسان لرجل من عرض الناس لطمة بلطمة ويقف امير المؤمنين علي بن ابي طالب في موقف المحكومة مع الرجل اليهودي في دعوى الدرع

ان خلافة الخلفاء الراشدين كانت مقيدة بالقوانين الشرعية والخليفة خاضع لقاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي بذلك دينية مشروطية (ديموقراطية) وكان للامة جمعاء حق النظر مع الخليفة فيما يصلح ويفسد وكان لاهل الرأي منهم اشتراك في الامر وعلى كل فرد مسلم حق واجب ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذه القاعدة من اركان الواجبات

الدينية عند المسلمين . ومن علم ان الخليفة الاول ابا بكر رضي الله عنهُ يقول على المنبر اذ رأيتم فيَّ زيغاً فقوموني فانا انا بشر اخطئ وأصيب علم حينئذٍ كنه الخلافة الاسلامية وبلغها من العدل والصواب

ولما اختل ركن المساواة وانست الامة من ولي الامر وحاشيتهِ بعض الاستئثار وشيئاً من الاعمال التي تغاير ما الفوهُ ورأوا فيها مغايرة للسيرة الصالحة وذلك في النصف الثاني من خلافة ثالث الخلفاء الراشدين اضطرب امرهُ وكان من امرهِ ما كان . الاَّ ان هذا الاختلال أيقظ اطماع كثيرين لم يرضوا من رابع الخلفاء رجوعهُ الى السيرة الصالحة في المساواة بين الناس فايقظوا الفتنة وعم الخطب حتى اذا توفاهُ الله غلب على امر الامة وتولاها من لم تجمع الامة واهل العقد والحل منها على امرهِ فانتقلت الخلافة الى الملك المغصوص واصبحت الحكومة الاسلامية تتدرج في مدارج العنف والاستبداد شيئاً فشيئاً ماسمحت لها الفرصة ونفوس المحكومين فكان معاوية بن ابي سفيان رحب الصدر واسع الحلم يسمع القارص من الكلام فيغض طرفهُ عليهِ ولكنهُ على الضد من ذلك في كل امر يؤدي الى اضعاف عصبيتهِ والى انتقال الامر عن اهل بيتهِ . ضغط على افكار العلماء والمحدثين في ان يطلقوا السنتهم فيما ورد في الهاشميين . اصطنع كثيراً ممن غرَّتهم الاهواء واشترى منهم دينهم فوضعوا الاحاديث المخترعة لتنفير الناس من العصبة الهاشمية التي كانت تنازعهُ السلطة . وأي شيء اعظم في تقييد الافكار من عظيم مراقبتهِ لمن يذكر الهاشميين او يروي حديثاً يدل على فضلهم وقد بلغ من امر الضغط في الخلافة الاموية على ابناء الشام انهُ لما ادال الله من الدولة الاموية بالدولة العباسية اتى جماعة من شيوخ اهل الشام واكابرهم الى عبدالله بن علي العباسي وحاقوا لهُ بالطلاق والعتاق ان كانوا يعلمون لرسول الله قرابة غير بني امية . واي امرٍ في الضغط وهدم الحرية من هدم قاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي دعامة التهذيب وركن الاصلاح الركين والسنة والدين وقد قوض الامويون اركانها وبينما يقول اول الخلفاء الراشدين رضي الله عنهُ على منبره اذا رأيتم فيَّ زيغاً فقوموني فانا انا بشر اخطئ واصيب يقول عبد الملك ابن مروان على منبره من قال لي اتقِ الله ضربت عنقهُ

ومن قرأ محاورة عبد الله بن مروان مع ملك النوبة يوم فراره باهلهِ من جيش ابي العباس السفاح علم منها سيرة الامويين في من حكموهُ وما حكموهُ من البلاد والعباد . فقد قال لهُ ملك النوبة في ختام المحاورة على ما رواهُ صاحب العقد الفريد « بل انتم قوم استحللتم

ما حرم الله وركبتم ما نهاكم عنهُ وتبلتم من ملكتم فسلبكم الله العزائم » ومثل بعض شيوخ بني امية عن سبب زوال ملكهم فقال جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا وتحومل على اهل خراجنا فجفوا عنا وخربت ضياعنا فخربت بيوت اموالنا ووثقنا بوزرائنا فاثروا مرافقهم على منافعنا وامضوا اموراً دوننا اخفوا علمها عنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم عدونا فظاهروهُ على حربنا وطمّنا اعدائنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا

باغت الظلم والارهاق نفوس الامة العربية والفتن قائمة وتولى من لا خلاق لهم في القمة والشرف اعمال الحكومة فعملوا على استئصال اعظم ركن للشورى في الامة الاسلامية وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الواجب على كل احد لكل احد لا يفرق فيهِ بين كبير وصغير ومملوك وامير بشرط ان يطابق الامر والنهي المنهج الشرعي

كان الحجاج بن يوسف الثقفي وزياد بن ابيه ويوسف بن عمرو وخالد بن عبد الله القسري يحاضرابهم لا يعرفون لسيطرة حدًّا يقفون عندهُ ومن تصفح ما كتبهُ الجاحظ في كتابهِ المحاسن والاضداد في باب محاسن الصحبة وضدها من اعمال يوسف بن عمرو رأى العجب. قال لهمام بن يحيى وكان عاملاً لهُ يا فاسق خربت مهر جانقذق قال اني لم اكن عليها انما كنت على ماء ديناروعمرت البلاد. فاعاد عليهِ مرارًا قولهُ الاول وهو يبرهن لهُ انهُ لم يل لهُ مهر جانقذق وهو لا يسمع بل يعذبهُ حتى مات في العذاب وامثال ذلك كثيرة

لم يقم باسر العدل من الامويين غير عمر بن عبد العزيز ذلك الرجل الصالح لكن مدة ملكهِ لم تبلغ ثلاث سنوات فلم تؤثر في سير المصالح حتى اذا انساق الامر الى العباسيين كان فيهم المصلح والمفسد والفساد غالب. وتداولت ازمة الامور بعد ذلك دول كانت تختلف بشعوبها في مهاوي التأخر والشعوب لا تستفيق من سبات الذل الذي سجل عليها من عصر الامويين وما تلاهم من الدول ولا يدرك ابناؤها حقهم الشرعي ووجودهم الحقيقي حتى اذا اراد الله العقبى الصالحة واختلط الشعب بالامم الراقية المستنيرة بنور العلم والحرية فآل الى امرهِ ولهُ تعالى عاقبة الامور

النبطية احمد رضا